

مجلة أنثروبولوجية الأويان (المجلد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

خطاب الانفتاح والاختلاف الثقافي

بين طه عبد الرحمن وعبد الله العروي

The Speech of Openness and Cultural Differences for
Taha Abderrahmane and Abdallah Laroui

دكتور أحمد شيخ¹ ، أستاذ محاضر

DOC CHIKH MHAMED

شعبة الفلسفة - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر -

Department of Philosophy - Abi Bakr Belkaid University - Tlemcen -
Algeria-

Email : mchikh45@yahoo.com

تاريخ القبول : 2019/11/25م

تاريخ الإرسال : 2019/06/28م

ملخص

إن الخطابات الإقصائية قد أضرت بالمشاريع النهضوية وكذلك أساءت هي لنفسها حينما أغرقت أفراد مجتمعاتها بخطابات تحمل أحلام مستحيلة التحقيق، فأسسوا وأنجوا أيديولوجيات عقيمة تحمل التئيس، والمشروع الحدائي العربي لا يمكن أن يعرف سبيله نحو التحقيق إلا إذا اعتنى بوجاهة التعدد والتنوع الثقافي المحمول بثقافة مجتمعاتنا العربية، إذ يجب الانفتاح على الآخر في تعدده واختلافه، حيث يلزمنا فتح حوار ثقافي محمول بتنوعه أي أنه يشمل كل البشر مهما كانت اختلافاتهم، وقد اتخذت الثقافة العربية الإسلامية الوسيطة من الآخر عنصرا مساهما ومشاركا في بناء الفعل الحضاري الحقيقي، دراسات العروي التي أنجزت مؤخرا على وجه الخصوص حاولت ملامسة بعض مظاهر التسامح والإقرار بالاختلاف والتعدد في الكتابات العربية التي انشغلت بالاعتبارات الإيديولوجية والسياسية أكثر مما استنطقت النظام الرمزي المؤسس لنمط إدراك الآخر، أما طه عبد الرحمن فيرى أن الاختلاف حق مشروع ويجب توسيع دائرة التواصل لتشمل جميع الأفراد والمجتمعات كون التواصل واجبا إنسانيا، وعليه لابد أن يتحلى العقل العربي بوعي نقدي وأن يتجاوز كل من يمت بصلة إلى العفوية والتسرع في محاولته فهمه لذاته أولا ثم الانتقال لفهم الآخر

¹ المؤلف المرسل أحمد شيخ mchikh45@yahoo.com

،فثقافتنا ثقافة إنسانية ،والاختلاف ليس معناه إلغاء حقوق الآخر ،بل يجب إيجاد طرق للتواصل والتوافق واحترام خصوصية كل مجتمع دون محاولة تذويبه أو السيطرة عليه .

كلمات مفتاحية

الخطاب - الحداثة - الإنفتاح - الآخر - الثقافة - الانغلاق - الوعي - الإيديولوجيا - الاختلاف

Abstract

Indeed, the exclusionary speeches have not only done harm to the renaissance projects but they also self-harmed themselves by inundating the members of their societies with speeches holding dreams that are impossible to fulfill. Therefore, they founded and created ineffectual ideologies that bear hopelessness and despair. The modernist Arab project cannot be fulfilled unless distinct consideration is given to multiculturalism and cultural diversity which is carried in the culture of our Arab societies. It is a compulsion to be open to the other with regards to his pluralism and differences. Hence, it is necessary to open a cultural dialogue which carries diversity; that is to say, fully involving all humans whatever be their differences. The Medieval Arab- Muslim culture has made of the other a contributory and collaborative element in building the real civilizational act. Laroui's latest studies have tried to tackle some of the features of tolerance and the acknowledgement of diversity and pluralism in the Arabic literature. The latter was mainly preoccupied by political and ideological concerns more than by interrogating the symbolic system which is the pattern creator to cognize the other. On the other hand, Taha Abderrahmane regards differences as a legitimate right and therefore, we should widen the communication sphere so that it involves all members and societies because communication is a human obligation. Consequently, the Arab mind should be endowed with a critical consciousness and also should overcome impulsiveness and haste in his attempt to self-understanding, before trying to understand the other. Our cultural differences don't mean denying the rights of the other. Instead, we should find ways for communication and agreement; as well as the respect of the specificity of every society, without trying to assimilate or control it.

Key words: speech - modernity - openness - the other - culture - inward-looking - consciousness - ideology - difference

إن مفكرين عرب كثيرين نجدهم يسعون في التركيز على قضايا مجتمعاتهم وأوطانهم، وهي مهام تدخل ضمن الالتفات إلى الواقع الراهن وما يحمله من تصدعات وأزمات طالت الأمة، تغيرت الأحوال وأصبحت عملية التغير الداخلي ضرورة وحتمية تتطلبها مقتضيات العصر باعتبار الحداثة تحول عالمي وقد كان الفكر العربي بعيدا عن التحولات الحاصلة في العالم وكأنه كان في شبه غيبوبة استفاق منها فوجد نفسه متأخرا عقودا كثيرة عن باقي الأمم، وعليه وجب تجديد أفكاره وتنوير عقوله معهم، إن هذه الحال تدفع بنا حتما من أجل التغير والتجديد ذي أبعاد ومستويات متعددة ومتنوعة، لقد صنع الغرب لنفسه رؤية حول كونه ليس تلك القوة الضعيفة التي تم غزوها في الماضي من طرف المسلمين، وانقلبت الأمور لصالحهم وأصبحوا الآن قوة متفوقة على جميع المستويات العسكرية والاقتصادية والسياسية، وهو الأمر الذي مكنها من السيطرة على باقي الأمم، وفرض ثقافتها عليها بحجة أنها شعوب متخلفة ومتأخرة وجب وضعها تحت الوصاية من أجل ترقيتها وتطويرها، ومحاوله إيصالها للنهوض بمجتمعاتها وفق منهج أوروبا في حركتها وثورتها، ولعل هذا ما خلق وجود منظورين مختلفين بين الشرق والغرب، يحمل كل منهما مدلولات ثقافية مغايرة، توجب العمل على التواصل والانفتاح على الآخر من أجل اكتساب تجارب ومعارف وفي نفس الوقت هناك من طالب بحق الاختلاف في الثقافة والفكر، فإلى أي مدى استطاع العقل العربي أن يفتح آفاقه لفكر الآخر؟ وما هي الآليات التي يستعملها من أجل تحقيق انفتاح عقلائي نافع؟ وكيف نحقق مجتمعا كونيا أكثر تواصل وانفتاح؟ وكيف نؤسس لممارسة حوارية تحترم الاختلاف الثقافي والتنوع والتميز؟

إن الذات تسعى دوما لمعرفة الآخر واكتشاف بنيته وتركيبته ومميزاته وهذا حتى تعرف الذات ذاتها ووعيتها بما من أجل اكتشاف عناصره ومكوناته أي الآخر، فالقدرة على الخروج من دائرة الذات إلى ما هو خارجها تعني الثقة بالذات من جانب، وتعني قدرتها على أن تمتحن بما تملك من رؤى وأفكار من جانب آخر (رقية العلواني وآخرون، 2008، ص 144)، الأمر الذي يوجب التواصل مع الآخر كاختبار معارف الأنا من جانب وقدرة صموده أمام تأثيره من جانب آخر، وهذا لن يكون إلا بالانفتاح كوسيلة لاكتساب خبرات و معارف .

فالانفتاح على الآخر هو حاجة حضارية تفرضها الظروف والمصالح، فتصبح عملية الوصول إلى الحقيقة والمعرفة لها مكانها الحساس ولها أساليبها، حسب طه عبد الرحمن " أنه من أجل تحقق هذا وجب التعامل الفكري بينهما عن طريق التعارف، ولما كان التعارف أصلا تعاونا على المعروف، كان المعروف المطلوب هنا هو أفكار تنفع الجانبين .. يجب أن لا تدعي أية منهما أن مفاهيمها وأحكامها وقيمها تعلو على مفاهيم وقيم الأمة الأخرى " (طه عبد الرحمن، 2009، ص 144)، فالانفتاح ظاهرة عصرية ومحفز للمعرفة والثقافة والإطلاع على ثقافة وخبرات الآخر والاستفادة بما هو جديد وممتع وإيجابيات عديدة للاحتكاك بالمجهول وغير المألوف، وبالمقابل هناك سلبيات يعززها الانفتاح، وعلى الدولة التي تقرر سياسة الانفتاح أن تنهياً وتستعد لاستيعاب ما يمكن وتضع الحلول والإمكانات التي تحمي البلاد وتضمن للناس حياة هادئة آمنة دون معاناة .

فالانفتاح يتغذى على مذاهب عدة ومرجعيات مختلفة، ويثير كثيرا من الخوف في أوساط معظم العرب والمسلمين، فنجد طه عبد الرحمن يرى أن "إبطال مسلمة قصور الوجود الإنساني وتعين القول بضدها أي (أن الإنسان يحيا في أكثر من عالم واحد) .. ونتخذ هذا القول أساسا قويا نبني عليه آراءنا في حق الإنسان وجودا وسلوكا " (طه عبد الرحمن، 2012، ص 39)، فعند البعض الانفتاح على الآخر معناه محاربة الإسلام والانصياع لخطط أجندات غربية، كما يختلف تصور الانفتاح لكثير من الأفراد حيث يرى فيه البعض حرية يفعل من خلالها ما يريد وما يرغب فيه، كما يعني للبعض هو خصخصة كل القطاعات لصالح فئة معينة على حساب عموم الناس مما يقضي على حقوقها ومكتسباتها الاجتماعية ويفتح باب الاحتكار التجاري والاقتصادي لفئة معينة تفقد الباقي قدرتهم على العيش الكريم، هذا من مفهوم الانفتاح يفقد مدلوله الصحيح والجانب الإيجابي فيه، ويصبح معناه عند المجتمعات العربية مفهوم سلبي لا يجلب لهم غير الشقاء والتبعية.

يؤكد طه عبد الرحمن على "أن الانفتاح بين العوالم يجب أن يكون ضمن مبدئين اثنين أولهما الالتزام بأن يكون القول مطابقا للفعل وثانيهما أن يكون العمل مصدقا للكلام، ولقد سمى هذا المبدأ بمبدأ التصديق، ووجب عدم التشبث بالخطأ ولو كنا أمام عدو، فيقول أنه مضينا إلى عرض آرائنا ورؤانا.. لم يخطر ببالنا أن ندعي الاستئثار بالصواب دونهم، وإنما كنا نأتي ببدايل ونطلق إمكانات، ونبرز مكونات حتى لا يجمد أحد منا على رأيه، معتقدا أن الحق كله فيه والباطل في كل رأي سواه " (طه عبد الرحمن، 2012، ص 17).

يمكن أن يكون الانفتاح ذا إيجابية كبيرة ونافعة، إذا كان ما يؤخذ من الآخرين يؤخذ عن وعي ومعرفة وتخطيط، لكن هذا يشترط توفر في الفكر جملة معايير تجعله يقيس به درجة الحاجة من كل أمر يتعرض له، بحيث يستطيع من خلالها الحكم على المواضيع بالصالح أو الفساد، على اعتبار أن ليس كل المعارف التي يحتكم إليها الآخر هي معارف صائبة ونافعة بل يجب الأخذ فقط ما نحتاج له وما يتطابق مع جملة متطلبات الحياة ويتوافق مع هويتنا، ويشترط طه عبد الرحمن في هذا " ثلاثة شروط هي:

1- أن يعين المستفيد طريقا لتركيب هذه العلوم فيما بينها تركيبا متكاملًا.

2- أن يبنى نظرية للاستفادة من هذه العلوم.

3- أن يحدد نموذجًا يحقق قضايا هذه النظرية.

وعليه وجب الإحاطة بمسائل الشرع وقواعد الاستنباط فروعه وأصوله" (طه عبد الرحمن، 2000، ص 17).

أما بالنسبة للمفكر عبد الله العروي فالانفتاح على الكونية المتجاوزة قادرة على اتخاذ الذات العربية المتأزمة من مأزق التخلق الثقافي، والتأخر التاريخي، ولا يتحقق مثل هذا الذهاب إلا بفضل العودة إلى مراجعة الذات بحيث لا تكتفي بالالتفات إلى ذاتها فقط من موقع نرجسي أو دولي يكرس الأمر الواقع، وإنما يجب الانفتاح على الآخر في تعدده واختلافه، إذ لا يمكن للذات العربية فهم ذاتها بمعزل عن هذا الانفتاح حسب العروي، حان الوقت إذا للذهاب إلى الآخر وأن نكف بالنظر إليه على أنه العدو الذي

يحاول باستمرار أن يوقعنا تحت سيطرته، إنه المهديد الدائم لسلام وأمن أمتنا، إن العروي يلزمنا بفتح حوار ثقافي محمول بتعدد أي أنه يشمل كل البشر مهما كانت اختلافاتهم، ويلفت بالإضافة إلى ذلك انتباهنا إلى الاختلاف الثقافي الموجود خارج مجتمعاتنا وإنما بداخلها لا زلنا إلى اللحظة نتعامل مع الأقليات اللغوية، الدينية والعرقية والثقافية عموما باعتبارها أقليات لا غير، لا تكاد أن تكون محرومة من جميع حقوقها، طبعاً العروي يشير بالحوار مع الثقافات المختلفة يفتح بدوره أفقا للديمقراطية .

يرفض العروي كل هروب إلى الأمام وترك المجتمع يتخبط في أزماته ومعضلاته التي صار يتعرض إليها من جراء ظهور ثقافة مغايرة مهيمنة خاصة تلك التي تدعو إلى عولمة الثقافة قصد توحيدها ومنه محاولة ردم الاختلاف والتنوع المتميزة بمهما كل ثقافة بهدف إحداث الاندماج الثقافي ومحو الأقليات، وكما كان العروي المفكر الباحث عن مخرج للأزمات التي لا يزال إلى اللحظة يعاين منها مجتمعه، وبالأخص المجتمع المغربي، والعربي عموماً، التزام بالنظر إلى هذه الراهنية التي صارت تحدد مصيرنا نحن العرب المسلمين إن المشروع الديمقراطي لا يمكن أن تقوم له قائمة في ظل تكريس ثقافة الوحدة، والأحادية التي تمارس إقصاء وعنفا جذريا ضد كل ثقافة مغايرة مختلفة، تحمل تنوعها، وأملها لأبناء المجتمع المعتل، وبالتالي نجد مثل هذه الثقافة المكرسة للواحدية، الدوغمائية تنغلق على ذاتها منتجة بعد ذلك أصولية تسيّر بالمجتمع نحو العدمية، ذلك لأنها تقصى كل تعدد ديني أو لغوي...

إن العروي يرفض مثل هذا المنطق الإقصائي الذي أساء للمشاريع النهضوية من حيث الفهم، والتي أساءت هي أيضا بدورها لنفسها حينما أغرقت أفراد مجتمعاتها بخطابات مضخمة محمولة بالحلم المستحيل التحقيق، فأنجبوا وأحسنوا إبداع أيديولوجيات بائسة، كانت بمثابة رد الفعل على ما ينتجه الفكر العربي من الأفكار والمعارف، وهذا هو كما يشير المفكر على حرب: " واقع الفكر الإيديولوجي العربي، أنه ليس قادراً على تحويل الهزائم إلى انتصارات وغير قادر على استيعاب تفوق الآخر وعلى تحويل رد الفعل، أي ما يتلقفه و يقرؤه إلى فعل معرفي خلاق، فهو لا ينتج معرفة، أي لا ينتج مقولات أو نظريات أو مذاهب و لا يبتكر مناهج أو طرائق لأنه لا يمارس النقد والنقد الحقيقي هو نقد الفكر لعاداته و بآلياته وأدواته، ولهذا

فإن الفكر الإيديولوجي العربي هو فكر مقلد تابع يدور على نفسه و يجتر مقولاته الأبدية المتعالية التي لا تحول و لا تزول و التي تتجاوز التاريخ و تعلو عليه، نعم إنه ينتقد، و لكن نقده هو من قبيل الدفاع و التبرير، أو هو سعي إلى نفي الوقائع و حجب الحقائق " (علي حرب ، 1993، ص179) ،لقد تمكن العروبي ومن خلال ترهين Actualisé فكرة بإلحاقه بالقضايا المستجدة من الانفلات من انغلاقية نقده للتراث و للتقليد، ولكل فكر يحاول التموقع على ذاته، دون الانفتاح على الآخر ،لهذا وجدناه يدعو منذ بدء مشروعه الفكري التقدمي إلى عقلنة الاختلاف والثراء الثقافي الذي يميز كل مجتمع عربي الذي ما فتئت الدولة الوطنية المستقلة حديثا تمارس عليه نوع من الإقصاء والتهميش من موقع أنها في الغالب لا ترى في أفرادها وقد بلغوا النضج الذي يمكنهم من الأخذ بزمام الأمور في توجيه سياسة مجتمعه ،ومرد ذلك أحيانا باسم نزعة قوموية وأحيانا باسم نزعة وجودية مأمولة.

وعكس الانفتاح هو الانغلاق أوالتقوقع لكن ليس معناه هنا قطع وسائل الاتصال بالآخر ،وعدم سماعه أو تجنب مخالطته،وإنما المعنى هنا ذاك الطرح المشحون تاريخيا، الذي يرفض الآخر المختلف،ويحمل هاجس الريبة منه، ويضع حدودا وجدانية بينه وبين الآخرين ،فيرفض أي تواصل في جانبه الثقافي أو الاجتماعي ،ومن ثم فهي مصابة برهاب الغزو الفكري وهوس المؤامرة، مما يجعل الاستفادة والأخذ من الآخر غير ممكن ،ما دامت تعتبره الأنا عدوا لها وكل ما يأتي من عنده مشكوك فيه، وباعتبار الحضارة الغربية صاحبة السطوة على التقدم العلمي والمعرفي وجب التواصل معها،من خلال الحوار كوسيلة لبلوغ مستوى هذا الوعي،فطه عبد الرحمن "يرى أن الحوار واجب إنساني،ينبغي أن يعم كل الفئات أيا كانت وكل الموضوعات كيفما كانت.. فهذا زيادة في معرفة الذات، فضلا عن معرفة الآخر ،وزيادة في تحقيق إنسانية الإنسان وتنمية قوته الاستدلالية " (طه عبد الرحمن، 2014، ص 30).

فلا ضرر بالنسبة لظه عبد الرحمن أن يخرج الفكر العربي من هذا التيه الفكري الذي أصابه، وإلا بقينا محبوسين مع تغيرات شكلية لا ترقى للتطور المرجو ،مما ينجر عنه التأثير أمام أي أفكار تأتينا من الخارج "فالمسلمين سيستمرون في محاربة أعدائهم بأسلحة غير ملائمة لطبيعة المعركة التي يخوضونها،وسيغلقون على

أنفسهم منافذ التأثير في الواقع بحسب القيم التي يؤمنون بها ويرونها أفضل مما عند خصومهم " (قاسم شعيب، 2013، ص 8) ، فيغدو الانغلاق إحدى آليات الدفاع التي يحتكم إليها العقل العربي.

كما أن الانفتاح المطلق على الآخر فكرة ضارة كعملية انغلاق الأنا على نفسه، فالعملية الأولى يكون فيها الإنسان بدون هوية، أما العملية الثانية فيصبح لدينا هوية بدون إنسان، فنجد الأنا يبذل جهود مضنية مقابل أن يفتح على الآخر الغربي وبدون أي شرط يذكر بما فيه التنازل عن هويته والرضوخ له، في حين يستطيع أن يفتح وبدون أن يفقد أيا من هويته مع الآخر الشرقي الأقرب على الأقل إلى هويته ولن يحتاج أن يذوب فيه أو أن يفقد جزء من هويته.

ولهذا كان الاختلاف الثقافي، من أهم القضايا في العصر الحديث والمعاصر، حتى صار حقا ثقافيا لبقية الشعوب بعد هيمنة الحضارة، والدفاع عن الاختلافات الثقافية بين الشعوب يفترض قبولاً في كافة أشكال الاختلاف، حتى تلك التي لا يمكن قبولها عند غالبية الشعوب، وربما تجاوز الأمر إلى أبعد مما يتصور الإنسان من تحقيق قيمة المختلف في أحقيقته بالاختلاف، وهذا ظاهر بوضوح في الثقافة الغربية التي ربما لا تتوافق في بعض قيمها مع ثقافتنا الشرقية التي تحتفي بالتماثل أكثر من الاختلاف.

ولقد بذل بعض المفكرين جهوداً كبيرة من أجل إكساب مفهوم "الاختلاف" بعداً مفهومياً واصطلاحياً وتعبئته بمحمولة دلالية ومعرفية ذات بعد قيمي، وخلال السنوات الأخيرة عرف هذا المفهوم تطوراً ملحوظاً فالاختلاف أساسي لوجود الثقافة لكنه يزيد وينقص تبعاً لعوامل كثيرة منها التاريخي والجغرافي والثقافي البحث، ومحصلة هذا هي أن الاختلاف والتجانس متغيران تبعاً لظروف كثيرة " (سعدالبازعي، 2008، ص 14) .

إن الاختلاف مصدر غني معرفي يمكننا من تحديث سبل تفكير جديدة، هناك تصورات كثيرة عند الناس بخصوص مفهوم الاختلاف، فهو يحمل قيمة ومبدأ، إن قبول الآخر المختلف مهما كان بعد اختلافه هي ضرورة لا مفر منها، فالفكرة المخالفة بوسعها أن تكون منبع إلهام أو مصدر لصقل مواهبنا و

تصوراتنا، "إن الاختلاف الثقافي هو في الواقع أحد الأسس التي قامت عليها أبحاث الدراسات الأدبية المعروفة.. وقد سعت تلك الدراسات إلى تجاوز الاختلاف الثقافي الذي تطور ما بين الآداب الأوروبية في محاولة لاستعادة الوحدة الثقافية الأوروبية في العصور الوسطى" (سعد البازعي، 2008، ص 14).

إن الاختلاف الذي ينشده العروبي هو "العنصر الوحيد الذي يعتمد عليه كل مجتمع يريد النهوض بأفراد مجتمعه، فالديمقراطية يقول العروبي لا تنجح في بلد موحد عرقيا ودينيا وثقافيا ولغويا، وفي هذا الطرح تقدم دائما اليابان أنموذجا مخالفا لهذا التصور" (عبد المجيد القدور و آخرون، 2007، ص 184)، إن العروبي وبجراحة يؤكد على ضرورة الالتفات إلى التعدد الألسني والاثني وحتى الديني، الذي بإمكانه أن يسهم في إنجاح المشروع الديمقراطي العربي، وبالتالي نبذ كل مظاهر الإقصاء الممارسة خاصة على الأقليات المتواجدة، والمتأصلة تاريخيا داخل الجغرافيا نفسها و الزمان نفسه الذي يجمعنا بهم، فالأقليات تنتمي تاريخيا إلى الأرض نفسها التي نقيم بها على خلاف الأقليات المتواجدة في المجتمعات الأوروبية الغربية، بحيث تختلف دلالتها لكونها أقليات غادرت وهاجرت أوطانها متجهة نحو الضفة الأخرى حيث الغربة والغربة.

إن المشروع الحدائي العربي لا يمكن أن يعرف سبيله نحو التحقق إلا إذا اعتنى بوجاهة التعدد الثقافي المحمول بثقافة مجتمعاتنا العربية، فهو لا يمكن أن يقوم يقول العروبي "إلا من خلال احترام أولئك الذين كان لهم إسهام جليل في البناء و التعمير الحضاري العربي الإسلامي إن وجود أقلية مسيحية في المجتمع الإسلامي و إضافة إلى الأقلية البوذية أو غيرها من الأقليات هو ضمان لنجاح المشروع الديمقراطي في البلد.... وهذه قناعتنا، إن هذا التنوع هو ضمان الديمقراطية ولا يمكن في نفس الوقت أن نطلب من الدول الغربية أن تعطي وتمنح للأقليات الإسلامية حقوقها كاملة لا منقوصة، وفي نفس الوقت لا نبدا نحن بإعطاء الأقليات نفس الحقوق" (عبد المجيد القدور و آخرون، 2007، ص 184).

بأسلوبه المعهود الذي يحمل التدقيق في المفاهيم وضبطها يقوم طه عبد الرحمن بالتمييز بين الاختلاف والخلاف، فهو يرى أن الاختلاف حق مشروع كما عنون به كتابه، في حين يرى أن الخلاف

غير محمود ويؤدي إلى النزاع والعنف والتفرقة وحتى نتجاوزه يكون عبر فهمه كما أن الحوارية لا تستلزم شرط الاتفاق والتوافق في المقاصد والوسائل والاعتقادات بقدر ما تشترط في العمق "الحوار مع الاختلاف" (طه عبد الرحمن، 2002، ص 29)، بالنسبة لطه عبد الرحمن ليست الكيفية المنتهجة في الوصول إلى الحقيقة هي المتعددة، لكن الحقيقة نفسها هي المتعددة "فالاختلاف الفكري ليس درجة واحدة وإنما درجات متعددة، أدناها اختلاف أفكار الفرد الواحد، يليه اختلاف أفكار الأفراد داخل الجماعة الواحدة، ثم اختلاف أفكار الجماعات داخل المجتمع الواحد، فاختلاف أفكار المجتمعات داخل العالم" (طه عبد الرحمن، 2009، ص 135).

يدعو طه عبد الرحمن إلى انفتاح على الآخر وتوسيع دائرة التواصل لتشمل جميع الأفراد والمجتمعات كون التواصل واجبا إنسانيا، نحقق من خلالها دراية أكثر بالذات والعمل على البحث في إنسانيتنا بتدبر وعقلانية، ومن هنا قام طه بتأسيس ذلك من خلال تحقيق حق للاختلاف الفلسفي الذي لا يكون إلا من خلال مبادئ الأخلاق التي يقوم عليها الأساس الفكري والفلسفي لأي أمة، "ووضع خطة تربوية دقيقة وشاملة توفر لمجتمعنا الناهض تكويننا متينا في منهجيات الحوار وأخلاقياته" (طه عبد الرحمن، 2011، ص 10).

ولا شك أن قيمة الاختلاف بين فلسفات الأمم، تجعل من الإنسانية أقوى وأكثر تعاون، فلما يصبح الاختلاف عبارة عن ميثاق فلسفي بين الأمم، يجعل هذا لكل أمة الحق في التفكير والاجتهاد في تحقيق الحق وإثباته، وهذا لن يتحقق إلا من خلال خلق آلية للتحرر من الفلسفة الغربية أو قل إنجاز الاختلاف على أرض الواقع وبكيفية تطبيقية، وقد دعا المتفلسف العربي أن وسيلته في معركته في التحرر هي .

من هذا المنطلق يمكننا التأكيد أن الإيديولوجية العربية المعاصرة لم تحسن اكتشافها للتنوع الثقافي الذي يزخر به الغرب أو الآخر، فهي عندما تتأمل في ذاتها تكشف في هذه الذات فترة من فترات الوعي

الغربي في مسيرته نحو الأمام ، فعوض أن تعتبر ذلك الكشف مجرد اتفاق أو عبارة عن انتقاد عرضي ، رأينا يقول العروبي " فيه إشارة موضوعية إلى الاتجاه نحو توحيد النوع البشري، توحيد هو هدف و نتيجة لا أساس التطور التاريخي " (عبد الله العروبي ، 2006 ، ص 202) ، فالثقافة العربية اليوم لم تعد تدرك ذاتها، ليس فقط عبر الآخر، وإنما عن طريق الإدراك الذي لها، إنما لا تدرك ذاتها إلا في مرآة الآخر، فهي إذن لا تعيش الثقافة كحركة تأليف ونشر، كتفاعل فكري ، وإنما كأسلوب عيش ونمط وجود، وهي لا تعيشه كتفاعل وتثاقف وإنما كإنفعال وهذا ما يجعلنا لا ندرك ثقافتنا في علاقتنا بالآخر إلا من خلال القيام بالموازاة والمقارنات والمقاربات ، وكثيرا و بعفوية نجد المثقف العربي سرعان ما يربط التراث العربي بصفة مباشرة أو غير مباشرة بتراث الآخر ، فنحن بصدد البحث عن الآخر داخل تراثنا ، وهذا ما يجعل ثقافتنا تأزم وتصرع في فهمها لحقيقة ذاتها، " لا يمكننا أن نؤسس حوارا ثقافيا فعليا قادر على إنقاذنا من حالة الاتفاق الذي هي عليه الثقافة العربية، إلا إذا حاولنا كما يقول عبد السلام بنعبد العالي قلب علائق القوة التي تربطنا بغيرنا وهذا لن يتم إلا بتملك فعلي لثقافته (أي ثقافة الآخر الغرب) لكن التملك هنا لا يعني البتة الملكية، لا يعني الاعتراف والتقمص والاقتراب وإنما الابتعاد والتحرر و خلق المسافات و إنتاج الأسئلة " (عبد السلام بنعبد العالي، 2004، ص 28)، هنا يكمن في نظر العروبي تسرع الثقافة العربية في محاولة توحيدها مع الغرب وجعل من اختلافه هوية وتطابق ، في الوقت الذي صار الغرب في حد ذاته لا يرى في ذاته كذلك، وإنما بدأ يسير نحو إقرار وبصورة فعلية و كلية كونية من خلال أخذه بالتنوع والاختلاف ، بعد أن اعتقد ولمدة طويلة أنه يمثل وحدة البشرية ، ففضل عدم تمثيل وحدة البشر لأنه لن يقدر على ضمان التنوع والاختلاف ، هكذا إن التهديد الوحيد الذي صار يورق الذات العربية اليوم هو أن تبقى على خطابها الوجودي القومي المضخم، البائس، الذي لا يزيد إلا تكلسا ثقافيا ، وتراجعا مضاعفا للتاريخ ، فالكونية لا يمكن أن تتقدم بدون أن تعمق في نفس الوقت الإحساس بالاختلاف والغربة.

نجد العروبي يرفض كل تشبث بالماضي من خلال مماثلة تقليد لتاريخه، فإنه في آن معا يرفض كل قول يحاول التماهي كلية مع الغرب، وكأننا من خلال هذا الموقف الجذري أمام نقد مزدوج بالمعنى الذي أسس له المفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي : "نقدا يمارسه العروبي لينتج من خلاله حادثة أصلية تعكس فعليا مستقبل المجتمع العربي ، الذي لن يحصل له الظهور إلا من خلال تخطي كلي للحاضر المتأزم عموما في خطابه إننا نريد التاريخ، فمعنى ذلك أننا سنزعزع دعائم النظام المتسطر للمعرفة الحالية ومن المعلوم - يقول الخطيبي- أن لا فائدة من المرور ثانية بطريقة أو بأخرى بكل المراحل التي مر بها الفكر الغربي، كذلك لا جدوى من الاعتقاد بإمكانية عقد صلة متكاملة مع المعرفة العربية القديمة " (عبد الكبير الخطيبي، 1980، ص 163)، إن مراجعة الذات العربية يتطلب منا إعادة قراءة الذات نفسها والتاريخ والآخر على أرضية الحدث والواقع وتعاملنا مع التراث لا بد أن يستفيد من مكتسبات علوم الإنسان المتعددة، المعاصرة على وجه الخصوص لكونها تضمن له مكان الاستمرارية وعدم الانغلاق على ذاته، فالأنثروبولوجيا، علوم الأديان المقارنة، والنقد الثقافي، والآداب المقارنة، والفلسفة... كلها مجالات قادرة على منح قراءتنا لتاريخنا ولذاتنا إمكان فهم ذاتها، إن العروبي وبجراحة منقطعة النظير يؤكد على ضرورة الالتفات إلى النقد الألسني واللغوي الذي بإمكانه أن يساهم في إنجاح خطابات الآمال والأصل، ونبذ بالتالي كل مظاهر الإقصاء الممارسة على الأقليات المقيمة تاريخيا داخل المجتمعات العربية، فالمشروع الأنثروبي الحداثي الحقيقي لا يمكنه أن يعرف النهوض يقول العروبي إلا من خلال احترام أولئك الذين كان لهم إسهام جليل في تماسك الحضارة العربية الإسلامية منذ بدئها "إن وجود أقلية متنوعة ومختلفة التوجه يضمن نجاح الديمقراطية داخل المجتمعات العربية، طبعاً يجب الإشارة أن دلالة الأقليات هنا يختلف من حيث التعاطي معه تاريخياً، فالأقليات الموجودة في أوروبا الغرب تركت وغادرت أوطانها، فهي مقيمة بداخل بلدان المهجرة، أما الأقليات الموجودة في الشرق العربي الإسلامي فهي تستمد أصولها من الأرض نفسها التي تقاسمها معها الأكثرية لهذا يجب التعامل معها على مفهوم الأقليات بحذر يقول العروبي" (عبد المجيد القدور و آخرون، 2007، ص 184).

ومن هذا المنطلق كان لزاما الالتفات إلى الثقافة العربية الإسلامية الوسيطة التي اتخذت من الآخر عنصرا مساهما ومشاركا في بناء الفعل الحضاري الحقيقي ،لقد كان العربي الإسلامي الوسيط يتقبل ويرحب بالاختلاف داخليا وخارجيا ،لربما هذا ما يؤكد عليه بصورة جد واضحة المفكر علي أومليل في عمله (شرعية الاختلاف) حينما خلص إلى القول " إن كتب الملل والنحل وكتب الفرق ولو أنها رصدت ما لا يتصور من عقائد ومذاهب، فإنها بقيت سحينة موقف إيديولوجي ثابت يتمثل في اعتبار كتاب هذه المصنفات أن الحقيقة واحدة يمتلكها طرف واحد لا غير " (علي أومليل، 1991، ص94) ، أي أنّ التاريخ كما سجله المؤرخون هو " ميدان الخلاف والاختلاف ، أما أصحاب العقائد فإن الحقيقة عندهم واحدة أبدية " (علي أومليل، 1991، ص96) ، ولذلك لا طائل من وراء البحث عن قيم لاختلاف في التراث العربي الإسلامي لأن الدعوة على مشروعية التعدد وتعاقدية النظم السياسي وتداول السلطة والمصالح من المبادئ والقيم التي سعى اليوم إلى إقرارها لتنزل فينا منزلة التقاليد المستحدثة " (علي أومليل، 1991، ص97).

فأعمال العروي اتخذت من الآخر جوازا للدخول في حوار معه داخل الثقافة المعاصرة من دون أي حكم مسبق، دوغمائي، وعلى خلاف تلك الأعمال التي اتخذت من الآخر موضوعا لها من زاوية النظرة العربية الإسلامية، اهتمت بكيفية بارزة بالجوانب التاريخية أكثر مما عملت على استجلاء عناصر النظرة إلى الآخر، إن دراسات العروي التي أنجزت مؤخرا على وجه الخصوص حاولت ملازمة بعض مظاهر التسامح والإقرار بالاختلاف والتعدد في الكتابات العربية التي انشغلت بالاعتبارات الإيديولوجية والسياسية أكثر مما استنطقت النظام الرمزي المؤسس لنمط إدراك الآخر، إن الغرب الذي يعادينا ونعاديته، يعاكسنا ونعاكسه، هل الغرب الظاهر، السميكة، المعتم، المنغلق على نفسه وعلى غيره المغتر برياضة وحنانه، وحدائقه، بشوارعه ومدافعه، الذي يظن أنه في غنى عن موافقة الإنسان على مشاريعه لكن الغرب التائب، المراجع لأوضاعه يقول العروي : " الذي دون أن يتخلى عن محيطه الجميل المرجع يذكر الجميع بالآمال القديمة، المتمثلة في

الأساطير الأولين، آمال إنسان مطمئن التي نفسه متصالح معها، الغرب الذي يتطلع إلى المستقبل من خلال مخاطبة شعوبه وشعوبنا، ذلك غرب يجب أن نسمح له إن أردنا تجاوز ما يمليه علينا الغضب و العجز من احتجاج أهوج، أو لم نرى فرانز فانون نفسه العدو للدود للإمبريالية الثقافية ورافع علم الأصالة الراضية يتحدث عن التطوعات المشرقة التي رسمت أوروبا خطوطها من حين للآخر " (عبد الله العروي ، 2006 ، ص 85).

إن موقف العروي نابع من رؤية تؤمن بأن التاريخ تحكمه قوانين وضعية لا مفر منها ومن فهمها واستيعابها قصد التمكن من تحقيق النهوض ، طبعاً هناك من بهرتكم الحضارة الغربية فحاولوا تقليدها والنسج على منوالها، كما فعل الكثيرون من النخب الثقافية والسياسية الذين تعاملوا يقول علي حرب : "مع الغرب بوصفه العالم والأفق أو المثال والنموذج في النهوض والإصلاح أو في التقدم والتنمية أو في التحرير والتغيير أو في التفكير والتغيير من أتاتورك إلى بورقيبة ومن شبلي شميل وقاسم أمين وطه حسين إلى شعراء الحداثة وكتاب ما بعد الحداثة" (علي حرب، 2002، ص 67).

من كل هذا نصل إلى أن ثقافتنا ثقافة إنسانية همها الإنسان وما يرتبط به، وما الانفتاح على الثقافات الأخرى وضمهما إليها والأخذ من معارفهم دون النظر إلى أصولهم أو أجناسهم خير دليل على إنسانيتها، فهي ثقافة الحوار مع الآخر فأصبح هؤلاء الغرباء عنها أكثر المدافعين عنها، وكانوا حماة لها مثل الجاحظ وابن قتيبة والرازي والمجرجاني والبخاري والكندي وغيرهم، ولو كانت ثقافة صراع أو تعصب لشغلت بالمعارك الفرعية ولم تقدم للإنسانية ما قدمته حين تكلم العلم بالعربية على مدى ثمانية قرون من الزمن.

فلكل البشر الحق في الوجود وعيش حياة مطمئنة آمنة راقية، ومهما كان الاختلاف بينهما لا يعطي الحق لأي طرف بأن يلغي حقوقه الآخر، فلكل كائن نفس تحمل الوجدان والإحساس وتميل للتضامن والتعاون مع الآخرين، ولكن ما لحق الذات من تحول في طبيعتها راجع في الأساس إلى تأثير السلطات الحاكمة وهذا من خلال أساليبها في خلق الفوضى بين أفراد المجتمع ومحاولة خلق الفوضى من أجل تسهيل

عملية التحكم فيهم، هذا كان مغذيا للكراهية والعنصرية بينهم، فكانت نتيجة هذا فوارق طبقية و فوارق نفسية بين الأنا و الآخر .

إنّ مسألة الاختلاف تجعل من الضروري للأنا أن يقرر كيف يتعامل مع الآخر المختلف عنه في الجانب المعرفي والجانب الروحي، وهنا توجب عليه إما الاستفادة من قدراته العلمية والمعرفية أو الابتعاد عنه والانغلاق على الذات ، وهذا ما يجعل لكل طرف خطاب يميزه عن الآخر ويجعل منه صوابا لا يقبل الخطأ، فوعينا بالضرورة الاختلاف يجعلنا نفرق بين ذاتنا وبين الآخر في جميع النواحي، وبغض النظر عن الصور التي يكون عليها الآخر .

أما في الاختلاف الفكري والفلسفي مع الآخر، فإنه لن يكون تحققه بالنسبة للأمة العربية والإسلامية إلا من خلال أن يؤسس كل مجتمع أمة في حين العكس صحيح تستطيع كل أمة أن تؤسس مجتمعا، فالأمة ما يؤسسها هو الهم الأخلاقي والثقافي الذي يتم حمله من طرف الأجيال المتعاقبة عبر الزمان، أما من الجانب الأخلاقي فهو أساسي لارتقاء أفراد المجتمع إلى مستوى الممارسة والسلوك، وفي نفس الوقت هو رقي روحي يرفع من مرتبة الأفراد إلى درجة الكمال العقلي .

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر

- 1- طه عبد الرحمن، ، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري،المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء، بيروت ،الطبعة الثانية ،سنة 2009
- 2- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة 2002.
- 3- طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،سنة 2014
- 4- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل ،الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت،الطبعة الأولى ،سنة 2011

مجلة أنثروبولوجية الأديان (المجلد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

5- طه عبد الرحمن، روح الدين (من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمائية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، سنة 2012

6- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 2000

7- عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة 2006

2- المراجع

1- رقية العلواني وآخرون مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، سنة 2008

2- سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، سنة 2008

3- عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1980

4- عبد المجيد القدور و آخرون: عبد الله العروي، الحداثة وأسئلة التاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك، طبعة الاولى، سنة 2007

5- عبد المجيد القدور و آخرون: عبد الله العروي، الحداثة وأسئلة التاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، سنة 2007 .

6- علي أومليل، شرعية الاختلاف، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، الطبعة الأولى، سنة 1991

7- علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1993

8- علي حرب، العالم ومأزقه، منطق الصدام و لغة التداول، المركز الثقافية العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2002

9- قاسم شعيب، فتنة الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، سنة 2013

3- المجالات

1- عبد السلام بنعبد العالي، الثقافة العربية في مرآة الآخر، مجلة فكر و نقد، العدد 56، سنة 2004